Auch junge Leoparden haben Flecken

von

Andreas Brettschneider

الفهود الشابة مرقطة أيضًا

لأندرياس برتشنايدر

تمت ترجمة المقتطف في إطار التعاون مع جامعة الملك بن سلمان الدولية ممثلة في الأستاذة الدكتورة علا عادل عبد الجواد، بوصفه مشروع تخرج لكل من:

- *ندى هاني*
- *أمير ماجد*
- *يوانا ميلاد*
- *رنيم طارق*

وتحت إشراف:

- *الأستاذة الدكتورة ريهام طاحون*
- *الأستاذة داليا حازم*

السفينة الثالثة

لم يعد متبقي قبالة الساحل حاليًا سوى سفينتان جانحتان، تقفان هامدتين في المكان ذاته الذي كانت ترسو فيه ثلاث سفن منذ سنوات، هناك في جنوب "حافون"، حيث يدس الذئب فمه، كما يقال في منطقتنا. كنت أعيش على شاطئ جزيرة صغيرة في شمال الصومال. وبدت جزيرتنا على الخريطة كرأس ذئب، يوجه نظره نحو اليابسة، وادَّعى القدماء أنه ينظر بقلق إلى أرضنا. كنت أمشي على امتداد هذا الشاطئ كل يوم في طريقي إلى المدرسة. ودائمًا ما حملتُ نعلي في يدي لأسحق رمال الشاطئ الساخنة تحت قدمي وبين أصابعها. أعبر بعدها جسرًا رمليًا، يسمى "الطمبولو"، كي أصل إلى البر. وفي كل يوم من تلك الأيام كنت أرى السفن الكبيرة الصدئة، التي أطلقت عليها أنا وأختي أمينة اسم "الجثث الثلاث الضخمة". لأنها كانت مهجورة وبلا حياة، فقد انجرفت ميتة مثل كل ما انجرف إلى شاطئنا منذ سنوات، كأشلاء الأسماك، والسلاحف البحرية، وكل ما لم يكن صيادو أعالي البحار في حاجة إليه.

وكان أبي يضيف لذلك دوما: "ما لا يحتاجونه في أوروبا". ولم يكن فقط الإيطاليون أو اليونانيون أو غيرهم، هم الذين حرصوا بسفنهم الصناعية الضخمة على ألا يتبقى شيء للصيادين في قريتنا ليلتقطوه من البحر. لكن من وجهة نظر أبي كان الأوروبيون دائمًا سببًا لذلك. رأيت في أحد المرات زورقًا في عمق البحر وكان ذلك منذ خمس سنوات تقريبًا عندما كان أخي الأكبر عيان لا يزال معنا. حينها أشار إلى الأفق وقال لي: "انظر يا جيدي، إنهم يسرقون رزقنا من البحر." أصبح صيد الأسماك الحية في مدينتنا "حافون" شيئًا نادرًا منذ زمن بعيد. فكان القول الشائع عندنا "بع قاربك واعمل صيادا"، حينها يمكنك البحث على الساحل عمّا يطرحه البحر ويكون صالحا للأكل. "نحن نأكل بقايا أكلهم مثل الكلاب"، هذا ما كان يقوله أبي عندما كنا نجلس أمام منزلنا على الجدار الحجري الصغير ونرى النساء والأطفال يمشون ذهابًا وإيابًا على طول الخليج حاملين أقفصة. فيعض أبي على شفتيه ويدخن سيجارته في صمت. أما "الجثث الثلاث الضخمة" فهي ملقاة صدئة أمام خليجنا منذ أربع سنوات. وفجأة اختفت إحداهم، تلك ذات الهيكل الأزرق التي كانت ملقاة بين السفينتين الرمادية والحمراء. كيف حدث ذلك؟

"اختفت الجثة الزرقاء!"، صرخت أثناء ركضي باتجاه المنزل. "أمينة! تعالي هنا، يجب أن تري هذا! الجثة الزرقاء اختفت!" وسرعان ما هرعت أمينة خارج المنزل. ألقيت حقيبتي على الأرض، وأمسكت أختي بيدي اليسرى وسحبتها معي وهي تركض، كانت تريد التوجه إلى الساحل لترى إن كان هذا الأمر حقيقياً.

ثم نادتنا أمي من الخلف: "توقفا! لقد حان وقت الطعام"، فاستدرنا والتفتنا إليها بخيبة أمل.

وصرخنا أنا وأختي في نفس واحد: "لكن يا أمي، الجثة الزرقاء اختفت". لم تفهم أمي ذلك وقالت: "وستظل مختفية لبعد انتهائكما من الطعام. فتعالا فورًا لتناول الطعام".

تبعناها على مضض إلى داخل المنزل وجلسنا على الطاولة في المطبخ وتناولنا الباستو وكأننا لن نعيش إلى الغد. لقد أحببت تلك السباجيتي. كانت أمي تعد أفضل باستو في أنحاء حافون. عادة ما كنت أشم رائحة التوابل من علي الشاطئ، الكزبرة والكمون، فكنت أسرع عائدًا إلى المنزل. كنت أتمنى أثناء ركضي أن تحتوي الصلصة على ثلاث قطع من اللحم على الأقل، ولم أكن أحتمل الانتظار حتى أعود إلى المنزل. ولكنني اليوم لم أعد أهتم. كان علينا أن نسرع في تناول الطعام حتى نعود بسرعة لنلقي نظرة على مكان الجثة الزرقاء الضخمة التي لم يعد لها وجود الآن.

"من الذي اختفى؟"، سألنا أبي، الذي كان يقف عند الباب، ووبختنا أمي بصرامة: "هذا ليس سببًا لالتهام الطعام بهذه الطريقة!"

"إنها الجثة الزرقاء الضخمة"، تمتمت وفمي ممتلئ بالطعام، فوبختني أمي مرة أخرى: "لا تأكل وفمك ممتليء!"

ضحكنا جميعًا حتى سقط الطعام من فمنا. لطالما مرت أمي بذلك الموقف عندما تحاول أن تكون أمًا صارمة. وحتى عندما تفشل في ذلك. نادرًا ما كانت صارمة وغالبًا ما كانت تفشل عندما تحاول رغم ذلك. لقد رغبت فقط أن تقلد الأمهات الأخريات في حافون. وهن أردن أن يقلدنها. كان بإمكانك أن تسمعهن في السوق يشرحن لبعضهن البعض كيف تسير الأمور مع الأطفال في المنزل: فكانت إحداهن دائمًا أكثر صرامة من الأخرى. كنتُ على قناعة تامة بأن لا أم أخرى أكثر صرامة من أمي. لقد أقنعن أنفسهن أنهن في منافسة حقيقية، لكنهن يكتشفن مساءًا في المنزل فشلهن جميعًا، تمامًا مثل أمي الطيبة. كان اسمها كيلالا. ويعني الاسم "شبيهة بالقطط"، وهذا بالضبط ما كانت تود أن تكون عليه. فقد أرادت أن تكون مستقلة وعنيدة. حدث ذات مرة أنها لم تتحدث إلى أبي لمدة يومين كاملين. لقد انتابها قلق بالغ مجددًا من شيء ما دون سبب، فوجه لها أبي الكلام قائلا : "كيلالا! لقد أطلق عليكِ والداكِ اسمًا لا يناسبك تمامًا – " شبيهة بالخِراف"، سيكون ذلك أفضل كثيرا". عبست أمي وضحك أبي على عبوسها حتى زال العبوس تمامًا. لم تتحمل أمي أبدًا أكثر من هذين اليومين - عادةً لم تستطع مقاومة طبيعة أبي الطيبة أكثر من بضعة ساعات. لأنها كانت في الواقع طيبة على الرغم من أنها كانت تتصرف في كثير من الأحيان بصرامة شديدة. كانت تحب والدي وكان والدي يبادلها الحب. هذا هو الحال ببساطة.

واصلنا الضحك بينما كنا نأكل، أما أمي فظلت عابسة. وأخيرًا، أعاد أبي السؤال: "من الذي اختفى؟"

ردت أمينة بصوت عالٍ: "الجثة الزرقاء الضخمة"، كما لو أن أبي لم يفهم مقصدنا، مع أنه كان واضحاً تماماً. كان عليها أن تعيده مرة أخرى وبصوت أعلى حتى يفهم ما نقصده. وأخيرا فهم أبي.

قال: "الجثة الزرقاء الضخمة، أي..."، ثم صمت فجأة. وذهب إلى النافذة وحاول اكتشاف شيء ما في الخليج. أخذنا نراقبه وهو يحدق بتمعن من خلال النافذة باتجاه الساحل. وقف هناك لفترة من الوقت، ثم التفت إلينا، ونظر إليّ وإلى أمينة أولاً، ثم إلى أمي، وقال أخيرًا: "إنه هو. لقد فعلها."

"من فعل ماذا؟"، سألته وفمي ممتلئ بالطعام، ولكن أمي تطلعت بهدوء إلى السماء، وظل أبي صامتًا أيضاً. نظرتُ إلى أمينة، لكنها لم تفهم ما الذي يجري كذلك.

قالها أبي أخيراً: "اذهبا أنتما الاثنان، انتهى الأمر."

سحبت أمينة من يدها وركضنا إلى الشاطئ لنلقي نظرة على الجثتين الكبيرتين والجثة الثالثة المفقودة. ركضنا ونحن نلوح بأذرعنا، وتعثرنا في طريقنا إلى المكان، مرورًا بالشجيرات الخضراء حتى وصلنا إلى رمال الشاطئ. عندما توقفنا أخيرًا على الشاطئ، وأرجلنا متباعدة عن بعض وأقدامنا مغروسة في الرمال، نحدق في السفينتين الرمادية والحمراء غير مصدقين، فانتابني فجأة نفس شعور عدم الارتياح الذي انتاب والدينا. كان هناك شيء غير طبيعي في المكان. كان اختفاء الجثة الضخمة يعني شيئاً ما. لكن ما هو؟

كانت المسافة في البحر تُقدَّر بمائتي متر على الأقل حتى الرصيف الرملي الذي كانت ترسو عنده السفن، ومع ذلك كان بإمكاني وصف كل واحدة منها بأدق تفاصيلها، بعد أن ظللت أراقبها عدة مرات لفترة طويلة. فإذا أغمضت عينيّ بشكل كامل تقريباً، يمكنني استحضار السفينة المفقودة مرة أخرى. كنت أستطيع رؤيتها بين السفينتين الأخرتين: لون الهيكل الأزرق الفاتح، خطوط الصدأ البنية الحمراء التي امتدت من أعلاها إلى أسفلها والتي كانت تبدو كجبال صغيرة مقلوبة، بقمم مدببة تشير إلى الأسفل. كان هناك مكان في الجزء الخلفي من السفينة، وهو غرفة القيادة حيث كان يقف الربان حتمًا. المعدن مطلي باللون البني والسقف أبيض. وعلى الجانبين عند المقدمة، كان اسم السفينة مكتوباً باللون الأبيض: "يسرا". والذي يعني "النجاح". كنت دائمًا ما أجد الاسم بائساً؛ أعني بالنسبة لسفينة جانحة ربما أصابها الصدأ تحت وطأة الشمس ورذاذ البحر على مدى سنوات. كيف وصلت إلى هنا

أساسًا؟ لا أتذكر تحديدًا. كانت هناك ثلاث سفن في وقت ما هنا. واليوم توجد اثنتان فقط. ربما كانت الآن في مكان ما في البحر تبحث عن النجاح الذي وعدها به اسمها.

وسألتني أمينة فجأة: "هل تعتقد أنه عيان؟".

"ماذا؟ هل له علاقة باختفاء الجثة الضخمة؟ لا، عيان رحل منذ فترة طويلة"، قلتها وتابعت: "لقد انضم إلى القراصنة، وربما يكون قد مات."

"لا تقل هذا!"، نظرت إليّ أمينة بغضب.

فأجبتها: "إنه كذلك، وإلا كنا قد سمعنا شيئاً عنه في أي وقت. ولكننا لم نسمع عنه شيئا يا أمينة، ولا حتى شائعات. انسي عيان."

فردَّت أمينة: "ولكن السفينة الثالثة التي اعتقدنا أنها هلكت، هي الآن في عرض البحر مرة أخرى."

"من يدري؟"، قلتها وتابعت: "ربما كانت طافية على سطح البحر فقط ولا تعلم إلى أين تذهب."

لم تستسلم أمينة وقالت: "إذن فهي ليست ميتة على أية حال"، وتابعت: "أم أنك تعرف إلى أين تذهب؟"

فقلت لها: "لا أعرف."

"بالضبط. ومع ذلك فأنت على قيد الحياة."

فكرت كم هي ذكية أختي الصغيرة. كنت أرى أحيانًا أنه من الظلم أن والديّ كانا قادرين على تحمل تكاليف المدرسة لواحد منا فقط، وأن الخيار وقع عليّ وحدي. كانت أختي ذكية جدًا، ومع ذلك كنت أنا من يذهب إلى المدرسة، بينما كان يجب عليها أن تساعد في التحضير للاحتفالات الكبيرة التي كانت والدتنا تقيمها بانتظام للكبار والمهمين من عشائر "المجرتين". فقد كانوا ذوو سلطة هنا، لذا كانت الاحتفالات تجلب لنا المال - لأكبر منزل في "حافون"، لشراء الملابس والطعام، ولتسديد نفقات مدرستي. لقد كنت محظوظًا، محظوظًا لأني وُلدتُ صبيًا. كان من الممكن أن أكون غبياً مثل حزمة من عشب القات أو مثل شخص يمضغ القات لسنوات طويلة فأصبح مخه في حجم التمرة. وكنت مع ذلك سأذهب إلى المدرسة، بينما تساعد أمينة والدتنا. حسنًا، فهذه تقاليدنا. التي تعودنا عليها، كنتُ مدركا لهذا. ومع ذلك، كنت أحياناً أجدها غير عادلة. بالإضافة إلى أنني كنت أود أيضاً أن أذهب إلى المدرسة مع أمينة سيرًا بمحاذاة الشاطئ ومرورًا بجسر "الطومبولو".

قاطعتني أمينة قائلة وهي تنظر إلي: "جيدي، لقد سرحت في أفكارك مرة أخرى".

"أنا آسف"، قلتها وأنا أرى كيف تبتسم لي.

كانت دائمًا أكثر رضا عن العالم مما كنت عليه. التفتنا مرة أخرى إلى البحر، وسألتني أمينة: "هل تعتقد أننا يمكننا رؤية الجثة الزرقاء بالتلسكوب؟"

"لا"، ثم تابعت: "لا أعتقد. لقد ذهبت الجثة الزرقاء بلا عودة."

"*لقد فعلها* ..."، كررت أمينة كلمات أبي وتسائلت: "من كان يقصد بكلامه، إن لم يكن عيان؟"

"لا أعرف، ولن يخبرنا بكل تأكيد."

"تعال! فلنعد إلى المنزل"، قالتها أمينة بعد فترة وتابعت: "يجب أن أذهب إلى السوق من أجل أمي، وأنت بالتأكيد لديك واجبات منزلية لتنجزها."

"يمكنك إنجازها بشكل أفضل مني بكثير."

"بالطبع!"، ضحكت وضربتني على كتفي قائلة: "وتستطيع أنت أيضًا إنجازها."

في المساء جلس والدي على السور الحجري القصير أمام منزلنا. كان لا يزال يدخن ويحدق في البحر وقت الغروب. غالبًا ما كنا نجلس هنا معًا وأخبره كيف كان يومي. جلست معه اليوم وانتظرتُ لأرى إن كان يريد أن يخبرني شيئًا لكنه لم ينطق بكلمة، فجلسنا سويًا لفترة طويلة ملتفتين إلى البحر. "*هو من كان له يد في ذلك*." تذكرت كلمات والدي وتساءلت عمّا إذا كانت أمينة على حق، هل كان لعَيان علاقة باختفاء الجثة الزرقاء الضخمة؟

"لماذا يصبح الكثير منا قراصنة؟"، طرحت سؤالي هذا على الرغم من أنني كنت أعرف أنه سيرد علي كما يرد دائماً عندما يتعلق الأمر بالقراصنة لأنه يحتقرهم، سيقول إن الأمور جيدة نسبياً لنا هنا في بونتلاند، مقارنة بالفوضى التي تحدث في جنوب الصومال. لأننا كنا في مأمن كبير، فلم يكن لمتمردي حركة الشباب أي يد هنا. وكان يرى أنه إذا بذل المرء جهدًا كافيًا، فيمكنه تحقيق تغيير في وضع البلاد. وأنه ليس من الشجاعة أن تغدو قرصانًا، وأن القراصنة جبناء يتهربون من المسؤولية تجاه بلدهم من أجل بضع دولارات ضئيلة. كان سيعيد شرح ذلك كله مرة أخرى وفي النهاية، وكعادته سيمسك بيدي ويحدق في عيني قائلًا: "يجب أن تعدني، عدني بأنك لن تنضم أبدًا إلى القراصنة"، وكنت أومئ صامتًا. هذا ما توقعته مجددًا، فقد ندمت على طرحي السؤال من البداية.

لكنه نظر إلي بعدها بعينين واسعتين حزينتين وقال: "نفتقد أنا ووالدتك عيان بشكل لا يصدق"، ثم مسح دموعه، ووضع يده على كتفي وقال: "هل تعلم؟ بعد نصف عام من انضمامه إلى القراصنة، ظهرت السفينة الزرقاء الأم فجأة قبالة ساحلنا ولكننا لم نسمع عنه شيئًا خلال تلك المدة. كانت والدتك تأمل أن يكون ذلك من صنعه، وأنه لا يزال علي قيد الحياة وسيعود قريبًا. ولكن مر العام الأول، ثم الثاني، ومرت بعدها السنوات. لم يكن ينبغي علي أن أخبرك بكل هذا، لأنني لا أريدك أن تعيش على أمل كاذب مثلي أنا ووالدتك أن عيان ربما لا يزال على قيد الحياة ولكن عندما رأيت بعيني أن السفينة الزرقاء اختفت، أدركت بعدها أن شقيقك لا يزال على قيد الحياة. أعلم أنها مجرد أضغاث أحلام - لقد اختفت السفينة، هذا كل ما في الأمر. لكن يقيني بأن عيان سيعود كيقيني بوجود الله"، ثم مسح دموعه مرة أخرى.

"ولكن لماذا تبكي يا أبي؟"

"اختلطت مشاعر السعادة بالحزن لدي."

"وكيف ذلك؟"

"أشعر بالسعادة لأنني علي يقين بأنه سيعود وهذا أمر رائع وأشعر بالحزن لمعرفتي أنه لا ينبغي أن أكون على يقين بذلك."

نظرت إليه بحيرة.

"لأنه إن كان ذلك أملاً كاذبًا سيقتلنا ذلك حتمًا أنا ووالدتك."

عانقته وضممته بقوة لبعض الوقت قبل أن أذهب إلى غرفتي. لم يكن أبي يحتقر القراصنة. وكان على علم تمامًا بأن الأمر لا يتعلق فقط ببضعة دولارات ضئيلة، فقد قيل أن القرصان إذا كان محترفًا يمكنه أن يكسب مئات الآلاف من الدولارات تماماً كأسطورة نيدار. فقد قيل أنه أعظم قرصان على مر العصور حيث استولى في الماضي على أكثر من عشرين سفينة تجارية ولم يُقدِم على قتل أحد قط ولم يؤسر رهائن كما فعل كثيرون، لأن الفدية كانت أكثر قيمة من الغنيمة وحدها. بل كان نيدار رجلًا ذا مبدأ ولم يتمكن أحد من الإيقاع به. كان كالشبح، ولهذا لقب بـ "شبح عدن"، فقال الناس آنذاك إنه أعظم شأنًا من هنري مورجان بأوروبا ولا يزال الناس يتحدثون عنه هنا في بونتلاند. لا، لم يكن والدي يكره القراصنة. كان يختلق كل هذا، لأنه كان يفتقد عيان كثيرًا، وأنا كنت أفتقده أيضًا.